سُحَابَتي

كائنٌ لطيف

شهاب عبدالرزاق عبدالله

العنوان: سُحابتي _ (كائنٌ لطيف)

الكاتب: شهاب عبدالرزاق عبدالله

رقم الهاتف: ٩٥٩٦٢٩٢٤٤ (٩٦٣+)

سنة النشر: ٢٠٢٤

إهداء

لكلِّ إنسانٍ عاشقٍ... للقطط

لكلِّ محبٍّ... للقطط

لكلِّ من يدفئ ويطعم القطط

ولكلِّ من يعامل القطط وكأنَّها جزءً من روحه.

المُقدِّمة

عادةً لا أكتبُ المقدِّمة، لكنَّ عليَّ أن أخبرك شيئًا قبل أن تبدأ القراءة أيُّها القارئ،
أنا لم أكتب هذه القصَّة لكي تقرأها،
ولم أكتبها من أجلِ الشهرةِ أو لأنَّني أُحِبُّ الكتابة أو شيئًا من هذا،
كتبتها لأنَّني أُحِبُّ القطط، ولكي أُعَبِّرَ عن حُبِّي للقطط،
أي يعني لا يوجد بها أيُّ حماس، لكن ما أدراك؟
ربَّما تكون مثل أغنيةِ "YamaŞ Koçovalı" في مسلسل "Çukur"،
اسم الأغنية" لا يوجد حماس"
وهي كُلُّ الحماس.

كانت الساعة الخامسة فجرًا تقريبًا، لم تشرق الشمس بعد، اللون الأزرق بدأ يحتل السماء ببطء، وأنا ها قد وصلتُ منزلي.

عدتُ إلى بيتي حاملًا النعاس على كتفٍ والتعب على الكتفِ الآخر، كانت ليلةً شديدةَ البرود، وكئيبةً أيضًا.

كان المفتاح مختبئًا بينَ التربةِ تحتَ نبتةِ الريحان، وكان هناك شيئًا لطيفًا أيضًا يُحاولُ الاختباء تحتها، قطَّةٌ بريئةٌ هاربةٌ من شرِّ البرد، كان الخوف ظاهرًا على عينيها وهي تنظر إلي، تجاهلتها، أخذتُ المفتاح لأفتحَ وأدخل، لم أستطع الدخول!.

عدتُ إليها، وضعتُ حقيبتي جانبًا وجلستُ أنظر، لم أكن أعرف ماذا عساي أفعل، لم أتعامل مع قططٍ من قبل، دخلتُ إلى الداخلِ وأحضرتُ بعضًا من بقايا طعامِ الأمس، وضعتُ الصحنِ أمامها، لم تأكل!، ربَّما تحتاج ماء، دخلتُ ثانيةً وأحضرتُ وعاءً صغيرًا به ماء، لم تشرب!، ماذا عساي أفعل؟!، سريري يُناديني من الداخل، والقطَّةُ هنا بحاجةٍ للمساعدة.

لبَّيتُ نداء السرير، وتركتُ الباب خلفي مفتوحًا لعلَّها تدخل إن كانت تريد ذلك.

دخلت، اقتلعتُ حذائي، خلعتُ معطفي ورميته على الكرسي، والوشاح أيضًا كذلك، اقتربتُ من السرير، ثُمَّ دفنتُ نفسي تحتَ اللحاف.

استيقظتُ على العاشرةِ تمامًا، أيقظني كُمبال بقولهِ:
"صَباحُ الخَيْرِ يا شَخْصًا غَريبًا كُلَّ يوم، رِمَاحُ الغَيْرِ تَنْتَظِرُ السُّقُوطَ فَيَكْفِي نَوْم".

لا يوجد أحد في المنزل، إنَّني أعيشُ وحيدًا، كان يجب أن أستيقظ في العاشرةِ لأن هنالك ما أفعله في الحاديةِ عشرة، لا يوجد من أقول له أن يوقظني في ذلك الوقت، ولا يوجد أجمل من المنبه عندما يوقظني على صوتِ "رشاد كُمبال"، وهو يُغنِّي أُغنية "بصيرة".

كشفتُ اللحاف عن جسدي وجلستُ قليلًا على السريرِ كما يحدث في كلِّ مرَّة، أُفكِّرُ باللاشيء، ولا أجد إجابة!.

نظرتُ فرأيتُ القطَّةَ جالسةً بزاويةِ الغرفة وتنظرُ إليَّ بهدوء، لم أعرها بالًا، غادرتُ السرير وأنا أتثائب، يبدو بأنَّني بحاجةٍ لنومٍ أكثر، لكن لا بأس، ليست المرَّةَ الأولى، أغلقتُ باب المنزل، وذهبتُ لأغسل وجهي من النوم.

عدتُ إلى المطبخِ لأقوم بتسخينِ ما بقيَ من طعامٍ البارحة لأتناوله، لم أجد شيء!، من أكل الطعام؟! إنَّني وحيدًا هنا!، لا يوجد أحد غيري في المنز... لا، لستُ وحيدًا بعد الآن، هنالك قطَّة!.

ذهبتُ لأنظر إليها مجدَّدًا، فلم أجدها!، ربَّما غادرت، ولماذا ستبقى؟.

قمتُ بتسريحِ شعري بيدي، ارتديتُ معطفًا خفيفًا غير ذلك الذي خلعته صباحًا، وحذاءً آخر أيضًا، أعدتُ المفتاح إلى نبتةِ الريحان تلك، وغادرتُ المكان لأفعل ما استيقظت لأجله.

أنهيته، لا أعرف إن فزت أم خسرت، لكنَّني أنهيت.

اشتريتُ بعض البقوليات من سوقِ المدينة، وعدتُ إلى المنزل، كانَ يومًا هادئًا جدًا، وباردًا، كل شيء يسير كما خططت، لم يكن هناك أي متعةٍ أو حماس، دخلتُ المنزل، قمتُ بالاستحمام، ثُمَّ ارتديتُ ملابسي المنزلية، وبدأتُ بتجهيزِ الطعام، وضعته على النار، ثُمَّ جلستُ على الأريكةِ أنتظر.

التقطتُ إحدى روايات دوستويفسكي لأملأَ وقتي بأفكاره، كانت مرميَّةً على الأرضِ بجانبِ رواياتٍ أخرى تراكمَ فوقها الغبار، لم أبدأ الرواية من الصفحةِ الأولى، لقد أطحت الصفحة الخمسون، ربَّما لأكسر الملل قليلًا.

بينما كنتُ جالسًا على الأريكةِ وأستمتعُ بحزنِ الرواية، شيئًا ما لامس قدماي!، انتفضَ جسدي قليلًا، لأرى القطَّة ذاتها، استلقت على الأرضِ بينهما، لتنام، ربَّما وَجَدَت الدفء هنا، أو الأمان، أو الطمأنينة؛ ولكن يا صغيرتي أنا أفتقد لثلاثتهم.

تناولنا الطعام سويًّا لأوَّلِ مرَّة، هي على الأرضِ وأنا على الأريكة، أنهيتُ الطعام والحمدُ لله، حان وقت النوم، استلقيتُ على الأريكةِ ذاتها، وضعتُ فوقي قطعة قماش رقيقة، لا يمكنها أن تدفئني لكن لعلَّها تفعل، أغمضتُ عيناي لأغادر هذا العالم قليلًا، لكنَّها تريد أن تغادر معي، وقَفَت على الأريكةِ بجانبي وتنظر إلي، حينها لم أستطع أن أبقى صامتًا:

_ماذا؟، ماذا تريدين؟، تريدين النوم بجانبي؟، أحقًّا تعتقدين أنَّني سأقبل بذلك؟، هل أنتِ حبيبتي؟، ألا تحترمين خصوصيَّة الغير؟، هيَّا اذهبي وتدبَّري أمركِ في مكانٍ ما داخل المنزل هنا أو هناك، ما بكِ لا تزالين في مكانكِ؟، أقول اذهبي.

غادَرَت إلى زاويةِ الغرفةِ مكسورة الخاطر، حزنتُ قليلًا لأجلها ولكن ماذا أفعل؟ لا أستطع جعلها تنام بجانبي، لم أفعل ذلك من قبل؛ ولكن أيضًا لم أستطع أن أنام تركها حزينةٌ هكذا، هل تجرَّدَت منِّي إنسانيَّتي لهذه الدرجة؟! ربَّما تبرد في الليل، غير ذلك هي بريئة، ليست مثلنا نحن البشر؛ نهضتُ من مكاني محاولًا إيجاد شيئًا ما أضعه فوقها حتَّى لا تبرد، لم أجد أمامي سوى وشاحي الذي نزعته صباحًا، تردَّدتُ قليلًا ثُمَّ هتفتُ قائلًا:

_سأغسله صباحًا.

وضعته فوقها برفق، ثُمَّ عدتُ لأريكتي، ونمنا بسلام.

إن كنتَ تشعر بالوحدة، فقُم بتربيةِ قطَّة، إنَّها هديَّةٌ من اللّٰهِ للإنسان!.

الإنسان غالبًا ما يكون وحيدًا، وحيدًا هذا لا يعني أنَّهُ يعيش في منزلٍ بمفرده، ربَّما يكون وسط عائلته، لكنَّهُ وحيد، ربَّما يكون بين رفاقه وأحبَّائه، لكنَّهُ وحيد، وربَّما يقوم بتربيةِ قطَّة، فلا يبقى وحيد.

لقد مضت أشهر على وجودِ "سُحابة" في حياتي، نعم، أسميتها "سُحابة"، لم أكن أعرف من قبل أن القطط كائنات لطيفة لهذا الحد!.

باتت تعانقني وتنام، وأنا أفعل الشيء ذاته، تحاول مواساتي إن كنت حزينًا، تقوم بحركاتٍ مضحكةٍ لإسعادي، وإن لم تستطع، تحزن معي؛ أصبحتُ عندما أعود للمنزل، هناك من ينتظرني، هناك من يرمي نفسه في أحضاني، هناك من يحبُّني، أنا سعيدٌ جدًّا لوجودِ القطط في حياتي.

يزعجني عندما أرى قطَّةً في الشارع أحاول الاقتراب منها فتفزع منِّي وتهرب، ما الذي فعله البشر لهذه الكائنات البريئة لتخاف هكذا؟!، ماذا رأت من وحشيَّةٍ وماذا ذاقت من عذابٍ لتهرب بهذه الطريقة؟!
لقد تبيَّنَ لي أنَّ البشر هم المخلوقات الأكثر وحشيَّةً على الإطلاق.

مؤسف.

لقد حلَّ الصباح مجدَّدًا!
لكن هذه المرة اسيقظتُ على خطواتها فوق جسدي وليس على صوت "كُمبال".

شعرتُ بها عندما صَعِدَت على الأريكة، ثُمَّ جسدي، ثُمَّ تخطو خطواتها نحوَ وجهي، فتحتُ عيناي بابتسامةٍ بها جرعةٌ قليلةٌ من التفاؤل، لتتحوَّل تلكَ الابتسامةُ لصدمةٍ مُثيرةٍ للضحك، تحمل في فمها فأرًا لا يزالُ حيًّا، ينفثُ أنفاسه الأخيرة، يحاولُ النجاة، حتَّى غدا مقتولًا بينَ أنيابها؛ إنَّها واقفةٌ على صدري، ووجهها فوق وجهي، أصبحتُ كالجمادِ تمامًا، لا يتحرَّكُ سوى لساني:
_لا، لا، لا تفعلي، لا، لا، إيَّاكِ، لا ترمِهِ، اذهبي وكُلِيه بعيدًا، اذهبي من هنا، اذهبي من هنا، اذهبي من هنا.
قلتها للمرَّةِ الأخيرة ثُمَّ أدخلتُ رأسي تحتَ اللِّحافِ لأحتمي به، دفعتها بهدوء من تحت اللحاف حتَّى تنزل من على الأريكة، ثُمَّ نهضتُ وجلست قليلًا كما يحدث في كُلِّ مرَّة، أُفكِّرُ باللاشيء، ولا أجد إجابة!.

ذهبت، غسلتُ وجهي من الأحلام، والكوابيس أيضًا، ثُمَّ قمتُ بتغييرِ ملابسي، ودخلتُ المطبخ، حاولتُ تحضير شيء، لكنَّني لم أجد!، عدتُ إلى سُحابتي:
_في البدايةِ قمتِ بتناولِ طعامي بأكملهِ دون إذني، جعلتيني أخرج دون طعام، لم أقل شيئًا لأنَّكِ كنتِ لا تزالين صغيرة، أمَّا الآن، لقد كبرتِ، رغم ذلك فعلتِ الشيء ذاته أيضًا، أخشى عندما تكبرين قليلًا أيضًا تبدأين بأكلِ ملابسي، وعندما لا تجدين شيئًا، ربَّما تأكلينني.

كانت جالسةً صاغيةً وتنظر إليَّ بعينينٍ غاضبتين، كان شكلها بريئًا جدًّا ومُضحكًا نوعًا ما، قبَّلتها من رأسها بكلِّ حُبٍّ ثُمَّ بدأتُ بتمسيدِ شعرها قائلًا:

_افعلي ما يحلو لكِ يا حبيبتي، هذا بيتكِ كما هو بيتي، لكن عندما أغادر البيت، يجب أن تغادري أيضًا، إلى حديقةِ المنزل، من يدري؟، رُبَّما لا أنجو، هكذا إن لم أعد، يمكنكِ أن تذهبي حيثما تشائين، لكن إن بقيتِ هنا داخل المنزل ولم أعد، فماذا ستفعلين؟.

وَضَعَت رأسها في كفِّ يدي قائلةً:

_مياو

لا تضحك أيُّها القارئ، وماذا ستقول غير ذلك؟ لا تملك سوى هذه الكلمة، غير ذلك لا كلمة أجمل من هذه الكلمة!.

ارتديتُ حذائي، ثُمَّ أخذتُ معطفي ووضعته على يدي، حملتُ القطَّةَ في اليدِ الثانية وأكملتُ لها:

_انظري، لقد صنعتُ لكِ بيتًا من الخشبِ ووضعته هنا في الحديقة، حينما تشعرين بالبرد يمكنكِ اللجوء إليه إن لم أكن موجود

والآن.. إلى اللقاء، إن كان هنالك لقاء.

عادةً لا أُقدِّمُ نصيحةً لأحدٍ إن لم يطلب منِّي ذلك، لكن فلتكن هذه المرَّةُ استثناء.

إن أتت قطَّةٌ إليك تُريدُ الطعام، فلا تُردَّها خائبةً، أطعمها، ربَّما قد أرسلها الله ليغفر لك ذنوبك.

إن كنتَ غيرَ قادرٍ أو إن كنتَ لا تريد، أن تطعمهم، أو تدفِّئهم، أو تُقدِّمَ لهم المساعدة؛ فلا تُؤذِهِم.

في سنةِ الثالثة والعشرون بعد الألفان، ارتكبتُ جريمةَ قتلٍ بأحدٍ كان يُعذِّبُ قطَّة، وما أدراك أنت؟، ربَّما تكون مكان ذلك الرجل، وربَّما يكون رجلٌ آخر في مكاني، ويُعادُ المشهد ذاته، وإن لم يحدث، فالخالقُ موجود، وهو يمهلُ ولا يهمل، أي يعني.. ستلقى حتفك حتمًا؛ فلا تُؤذِهِم.

النهاية